

# قيم التعايش والتواصل الإنساني عند الإمام بديع الزمان النورسي وأثرها في تنمية العمل الإيجابي، وحل الأزمات، وتجاوز المشكلات

د.مصطفى الحكيم

جامعة محمد بن عبد الله-فاس/المغرب

lahkimmostafa@yahoo.fr

## مقدمة :

اقتضت إرادة الله جل وعلا أن يختلف البشر ويتباينوا منهجا وفكرا وطريقة ووجهة، وأن تتفاوت قدراتهم، وأفهامهم ومداركهم، وتتعدد مشارهم وروافدهم، وتختلف شعوبهم وقبائلهم وألسنتهم وألوانهم وهيئاتهم؛ وهي إرادة ناجزة، وأمر واقع ما له من دافع، يقول الحق عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۗ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾﴾ (هود: ١١٨-١١٩)، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٩٩)...

مما يستلزم البحث عن قواعد ناظمة، وضوابط حاكمة تساعد على تنظيم العلاقة بين المختلفين وفق مبادئ التعايش والتساكن والتواصل، حتى لا تتحول ساحات الوجود الإنساني إلى ساحات قتل وحرب ومصادرة واعتداء بسبب الاختلاف والتغاير. فهل من سبيل إلى تدبير سليم يضبط العلاقة بين المختلفين بضابط الاحترام المتبادل والتقدير المشترك، وتسبير لهذه العلاقة على مدارج الخدمة والتسخير والتعاون؟

وقد وعى الإمام النورسي بأهمية التواصل والتعايش بين المختلفين، وأدرك قيمة نزع فتيل الصراعات، وإبعاد شرارات التوترات والأزمات التي تعصف بالوجود الإنساني، وتشل إرادته عن واجب عمارة الأرض وتميئتها والنهوض بأحوال أهلها. ولا ينبغي أن يعزب عن بالنا السياقات التاريخية التي جعلت بديع الزمان مثابرا متمسكا بالدعوة إلى التعايش بين المختلفين، وتجسير العلاقة بينهم، وبناء قواعد رابطة وأسس ضابطة؛ بالنظر لما غشي زمانه من حروب وصراعات، وهو الذي عاش في أتون حربين عالميتين مدمرتين: الحرب العالمية الأولى (٢٨ يوليو ١٩١٤-١١ نوفمبر ١٩١٨)، والثانية (٧ يوليو ١٩٣٧-١٩٤٥)، والتي

أزهقت فيهما الكثير من الأرواح، وسالت فيهما الكثير من الدماء، وضاعت مصالح الإنسان، وصدور وجوده، وتقاذفته أمواج الكراهية والبغضاء، يقول متأسفاً متحسراً: «لقد شعرت بدافع العطف الإنساني بحزن أليم جدا للبشرية المضطربة في هذا الشتاء القارس، والشتاء المعنوي الرهيب الذي يلطخ البشرية بالدماء»<sup>(١)</sup>.

ونحن أحوج ما نكون في هذا الزمان العصيب إلى تمثل القواعد التي أثلها الإمام النورسي، وشاد بنيتها في تدبير العلاقة مع المخالف على أسس التعاون، والتعايش، والاحترام المتبادل، والرحمة العامة، والعطف الإنساني، والإنصاف المطلوب. وبخاصة في وقت تعالت فيه أصوات القتل والذبح باسم رب كريم، ودين رحيم، واستبدت بأهل هذا الزمان نوازع الحقد والكراهية، ومحركات العداوة والبغضاء، واشتعلت نيران الحروب، وأمسى الأخ قاتلاً لأخيه؛ وكلاهما يدعي أنه ينفذ حكم الله، وينصر دينه، وينفذ شريعته. وهو الذي قال حين دُعي لدعم ثورة الشيخ سعيد بيران النقشبندي ضد حكم مصطفى كمال أتاتورك وسياساته التغريبية: «إنّ ما تقومون به من ثورة، تدفع الأخ لقتل أخيه، ولا تحقّق أية نتيجة.. فالأمة التركية قد رفعت راية الإسلام وضحت في سبيل دينها مئات الألوف بل الملايين من الشهداء؛ فضلاً عن تربيتها ملايين الأولياء، لذا لا يُستلّ السيف على أحفاد الأمة البطة المضحية للإسلام.. وأنا أيضاً لا أستلّه عليهم»<sup>(٢)</sup>.

وقد انتظم هذا البحث بعد مقدمة في تمهيد ومبحثين: أفردت التمهيد لبيان ظروف نشأة المشروع النورسي، وسياقاته التأسيسية، وعوامل التأثير. ثم خصصت المبحث الأول لدراسة قواعد تدبير العلاقة مع الآخر وفق المنهج النورسي ومحدداتها ونماذجها من سيرته الزكية، ثم عرضت في المبحث الثالث لأثر هذه القواعد الجامعة في تنمية العمل الإيجابي، وتعزيز التواصل الفكري، والتفاعل الحضاري، وصيانة الحريات الدينية، وحل الأزمات، وتجاوز المشكلات، ثم أتيت بخاتمة جمعت فيها عناصر البحث وتوصياته وخلاصاته.

### تمهيد: المدرسة النورسية: ظروف النشأة وسياق التأسيس

توبأ الإمام بديع الزمان النورسي (١٨٧٦م-١٢٩٤هـ/١٩٦٠م-١٣٧٩هـ) مقاما

(١) الملاحق لبديع الزمان سعيد النورسي: ٢٠٥. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر: القاهرة، ط٣، ١٩٩٩.

(٢) سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي: ٢٠٨. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر: القاهرة.

عظيما، ومنزلا أثيرا في مسار دعوة الإسلام وحركته التغييرية أكسبه حضورا لافتا كسر به الحواجز الجغرافية ليشع بأنواره، ويفيض بحكمه وأسراره، ويؤثر بفكره القرآني ونظره الرباني في شعوب مختلفة، ومناطق ممتدة، وليحدث تغييرا وجد صداه عند ذوي القلوب المتوحدة ذوقا، المتوقدة شوقا، المتوجهة إلى ربها حقا وصدقا.

فأحيا الله به قلوبا مواتا هدَّها الإعياء، وزاغت بها النفس عن المحجة البيضاء، والرسالة الغراء فتاهت بين دروب الحياة تبحث عن الحقيقة المفقودة، والسعادة المنشودة. فلم تجد أمامها إلا السراب والقلب قفر خراب، وناداهم منادي الملك الوهاب: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

فقيض الله الإمام النورسي ليدل الخلق على الخالق، وليذكرهم بالنبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون؛ نبأ قيام الناس لربهم ووقوفهم بين يديه، ويزيل عنهم غشاوات الجهل والتجهيل والتضليل، وظلام الإلحاد والكفر بالله الذي غشي قلوب وعقول حياة المسلمين فأصبحت له سوق رائجة في زمانه، وصار له سلطان على النفوس الضعيفة التي سُلبت نور الإيمان وبركة الإسلام بفعل تأثير المدنية الغربية التي أزاحت الدين عن مواقع الريادة والسيادة، وألغت وجوده بدعوى مخالفته للتمدن والتحضر والترقي، يقول فريد الأنصاري متحدئا عن هذا السياق التاريخي: «كانت أمواج الإلحاد تجتاح البلاد والعباد، وكان التنكر للدين وأهله هو السمة الغالبة على الطبقة المثقفة آنئذ، ومن هنا تجرد النورسي رحمه الله لمعركة الإيمان بكل معانيه، العقلية والوجدانية والروحية»<sup>(١)</sup>.

فسرت عدوى هذه الأفكار إلى بلاد المسلمين، وألفت لها مكانا خصيبا في عقول البعض من بني جلدتنا الذين استنسخوا هذه الأفكار، وانتصروا لها، وراحوا ييثون سمومهم، ويوجهون سهامهم لدين الإسلام، وشريعته الحانية، ودعوته الخالدة، يقيسون مع وجود الفارق بين سياقين متباينين، ومرجعيتين مختلفتين. بين رسالة جعلت للعلم مكانا سامقا وللمعرفة منزلة جليلة، وانتصبت تعاليمها داعية إليه، محفزة عليه، مرشدة لسلوك طريقه، وغشيان مجالسه، ونيل كمالاته، ولا أدل على ذلك توالي ورود مصطلحات من الأسرة

(١) مفاتيح النور لفريد الأنصاري: ٧١. معهد الدراسات المصطلحية: فاس/مركز النور للدراسات والبحوث: تركيا/كلية الآداب والعلوم الإنسانية: طهر المهرز فاس، ٢٠٠٣.

المفاهيمية لمصطلح "العلم" وامتداداته ومكملاته في الدلالة والمعنى من مثيل: تعقلون، تنظرون، تتفكرون، تذكرون، تبصرون، يتدبرون، إقرأ، علم بالقلم، يسطرون... وغيرها مما يدل دلالة صريحة على مكانة العلم والمعرفة في الإسلام، ورفعة شأنه، وعلو مقامه، وشرف أهله والمشتغلين به؛ سواء أكانت علومًا شرعية أو علومًا كونية.

وبين مرجعية دينية مختلفة هي المرجعية المسيحية التي سعت إلى تعطيل النظر العقلي، وتخفيف منابع العلم، وإقصاء العلماء، ومحاربة نتائج العلوم، وثمرات الفهم، وهذا ليس قولاً نطقه على عواهنه، أو ثمرة من ثمرات التعصب الديني، وإنما هو حقيقة ثابتة شهد بها رجال الغرب أنفسهم، يقول الفيلسوف الفرنسي جوستاف لوبون: «إذا رجعنا إلى القرن التاسع والقرن العاشر من الميلاد حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدا، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها سنيُورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرأون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين الذين يقضون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع... ودامت همجية أوروبا البالغة زمنا طويلا من غير أن تشعر بها، ولم يبد في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر فيهم أناس رأوا أن يرفعوا أكفان الجهل الثقيل فولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة وحدهم»<sup>(١)</sup>.

ففي أوروبا كانت الكنيسة بفكرها الخرافي ومنهجها الاستبدادي تجثم على أنفاس العلماء والحكماء والمفكرين، مصادمة بذلك العقل والفترة التي تدعو إلى التفكير في ملكوت الله، وإعمال العقل والفكر والنظر. من هذه النماذج نظرة رجال الكنيسة لوباء الطاعون، حيث تم تصويره - كما جاء على لسان أحدهم - على أنه «ناتج عن تأثير الأجسام السماوية أو ناتج عن غضب الله من أعمالنا الآثمة، فليس هناك من علم إنساني يكافحه. لذا حل بنا أربع مرات متتاليات حتى نكفر عن ذنوبنا»<sup>(١)</sup>، أما كروية الأرض

(١) حضارة العرب لغوستاف لوبون: ٥٨٦. ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة: مصر، ٢٠١٣.

(١) انظر: شمس العرب تسطع على الغرب لزغريد هونكه: ٢٧٥. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل/دار الآفاق الجديدة: بيروت، ٨، ط ١٣٤١هـ/١٩٩٣م.

فاعتبرت كفرا وضلالا، يقول معلم الكنيسة لاكتانتوس مستنكرا: «هل هذا من المعقول؟ أيعقل أن يجن الناس إلى هذا الحد، فيدخل في عقولهم أن البلدان والأشجار تتدلى من الجانب الآخر من الأرض؟ وأن أقدام الناس تعلق رؤوسهم»<sup>(١)</sup>.

في الوقت الذي كان العالم الإسلامي ساحة علم ومناظرة، ازدهرت فيه المكتبات والوراقة، والبحث والتأليف، وتكاثر فيه الإنتاج العلمي النظري والتطبيقي، تقول المستشرقة الألمانية هونكه في نظرة مقارنة: «في الوقت الذي كان فيه العرب ينظرون إلى مثل هذه العوارض والأمور نظرة علمية بحتة تدعمها التجربة، ويغذيها البحث والتدقيق، كان النصارى في أوربا يقفون أمامها مكتوفي الأيدي، وقد سيطرت على عقولهم اعتقادات مهترئة أعمت بصرهم...»<sup>(٢)</sup>.

وقد وعى الإمام النورسي بهذا التباين بين هاتين المرجعيتين، وأدرك بعقله الثاقب، وفكره الوقاد، وقلبه المنور حقائق الرسالة المحمدية، وأسرار الآيات القرآنية حين ورد حياض القرآن، وعبَّ من معينه الصافي، وشرب من كوثره الزاخر، فانكشفت له من معانيه وأسراره وجواهره ما لا ينكشف إلا لصاحب فتح رباني، واستمداد نوراني، وكيف لا وهو سليل المدرسة اليوسفية - كما يذكر دائما في كتاباته - التي ذاق فيها صنوفا من الابتلاءات، وأصنافا من الاضطهاد والملاحقة والتعسف، يقول في ذلك: «لم أذق طوال عمري البالغ نيقًا وثمانين سنةً شيئًا من لذائد الدنيا؛ قضيت حياتي في ساحات الحرب، وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد؛ لم يبق صنف من الآلام والمصاعب إلا وتجرعته: عوملتُ في المحاكم العسكرية العرفية معاملة المجرمين، ونُفيت وُعزِّيتُ في أرجاء البلاد كالمشردين، وُحِرمتُ من مخالطة الناس في زنزانات البلاد شهورًا، وُعزِّيتُ للتسميم مرارًا، وُعزِّيتُ لإهانات متنوعة، ومرت عليَّ أوقات رجَّحتُ فيها الموت على الحياة ألف مرة، ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي، فلربما كان "سعيد" ترابًا تحت التراب»<sup>(١)</sup>.

حتى صفا معدنه، وصقلت روحه، وتمحض قصده، وشعت أنواره، لأن الابتلاء إنما هو

(١) المرجع نفسه: ٣٧٠.

(٢) المرجع نفسه: ٢٧٤.

(١) سيرة ذاتية: ٤٩١.

اجتباء واصطفاء وارتقاء وكمال، يقول الإمام النورسي في هذا الشأن: «الابتلاء والامتحان سبب النشوء والنماء، والنشوء والنماء سبب لانكشاف الاستعدادات الفطرية، وتكشف الاستعدادات سبب لظهور القابليات، وظهور القابليات سبب لظهور الحقائق النسبية، وهذه الحقائق النسبية سبب لإظهار تجليات نقوش الأسماء الحسنی للخالق الجليل وتحويل الكائنات إلى صورة كتابات صمدانية ربانية»<sup>(١)</sup>.

وقد عاش مع القرآن تلميذا نجيبا يتلقى إشارات، ويمثل لأوامره، وينزجر عن زواجه، اتخذه أنسيه وجليسه وسميره ودليله وحاديه إلى جنان المعاني الربانية، وقطوف الحكم الإلهية، ومباهج الأنوار القدسية، عاش مع القرآن بقلبه وفكره ففتح الله عليه من أبواب الفهم عنه ما رد به كيد الكائدين، وسهام الطاعنين في شريعة الإسلام، وكتابه المنزل، وحقائقه الثابتة، ودلائله الظاهرة، فزاد بذلك عن حمى الدين، وانتصر لقيم الإسلام وتعاليمه بحجج بالغة، وأدلة دامغة جمع فيها بين مدركاته العقلية، وبصيرته النورانية.

حمل الإمام النورسي هم القرآن، وأمانة البلاغ نيابة عن سيد الخلق وإمام الحق سيدنا محمد ﷺ ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (المائدة: ٩٩) الذي أورث هذه الأمانة خلفاءه وورثته من أهل العلم والولاية الذين شربوا من معين التزكية الإحسانية، فدل الخلق على الله، ولم يعتزل في أبراج التأليف والتصنيف مكتفيا به عن الواجبات الجهادية؛ بل غشي ميادين العمل الإسلامي، وساحات التربية والتزكية والتعليم، يقول في هذا الشأن: «إن مهمة رسائل النور الأساس: هي خدمة القرآن الكريم، والوقوف بصرامة وحزم في وجه الكفر المطلق الذي يودي بالحياة الأبدية، ويجعل من الحياة الدنيا نفسها سما زعافا، وجحيما لا يطاق. ومنهجها في ذلك إظهار الحقائق الإيمانية الناصعة المدعمة بالأدلة والبراهين القاطعة التي تلزم أشد الفلاسفة والمتزندقة تمردا على التسليم بالإيمان»<sup>(١)</sup>.

المبحث الأول: تدبير العلاقة مع الآخر عند الإمام النورسي: القواعد الناظمة

### والضوابط الحاكمة

سعى الإمام بديع الزمان النورسي سعيه، واستفرغ وسعه في بناء قواعد مساعدة على

(١) الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي: الكلمة ٢٩.

(١) الشعاعات لبديع الزمان سعيد النورسي: ٤٠٦. ترجمة إحسان قاسم الصالحی، دار سوزلر: القاهرة،

التفاهم بدل التصادم، مستنبطاً عناصرها التكوينية من رسالة القرآن، مستلهما جذورها من وحي تلمذته عليه، واغترافه من مشربه الصافي، قواعد من شأن تمثلها، والسير على مقتضاها بتجنيب البشرية نيران الحروب والصراعات والتنازع.

عند النظر الفاحص في هذه القواعد التي نجدتها مبثوثة في ثنايا نظراته القرآنية، وإشاراته الربانية في مجموع مؤلفاته؛ نُلفي بعضها يعالج واقع التنازع والاختلاف بين المسلمين واتجاهاتهم الفكرية والعقدية والسياسية؛ باعتبار أن رحما واحدة تجمعهم، ودينا واحدا يؤلف بين قلوبهم، وبعضها الآخر يعالج واقع الصراع بين الأديان المتعددة، والعقائد المختلفة، والاتجاهات المتباينة.

### ١- الحوار أفقا للتعايش

تأثر الإمام النورسي بالقرآن، وسرت أنواره في فكره، وحركته التغييرية، وعاش بين آياته وسوره يتفياً ظلالة، ويقطف ثمرات مختلفاً ألوانها من الأفكار والأسرار والإشارات التي هي رزق رباني، وعطاء رحماني يهبه الله لخاصته وأحابه ﴿رَزُقْ مَنْ يَشَاءُ بِعَيْرِ حِسَابٍ﴾ (البقرة: ٢١٢/آل عمران: ٣٧/النور: ٣٨).

لذا كان الحوار في الفكر النورسي معلماً راسخاً، وأساساً مهماً تجلّى في سلوكه ونظرته للناس والكون، وما ذلك إلا من ثمرات رسالة القرآن الذي أحل الحوار مقاما أثيراً، وأبرز شواهد ومشاهده في كثير من الآيات والصور التي تجلّى فيها الحوار بين المختلفين على قدم التواصل والتعايش تجلياً ظاهراً، حيث حفظ لنا القرآن حوارات عديدة في سياقات مختلفة يُستفاد منها، ويُعتمد عليها في بناء قواعد ناظمة للتعايش الإنساني، من ذلك حوارات الأنبياء مع أقوامهم، حوار الله تعالى مع الملائكة، حوار عز وجل مع الشيطان، حوار نوح عليه السلام مع ابنه... وغيرها من النماذج الحوارية القرآنية التي ليس هذا مجال بسطها، والتوسع فيها.

ولا ننسى أن الإمام النورسي استغرق حياته في الحوار مع المخالفين سواء من المسلمين أو من غيرهم، فلم يمتشق سيفاً، أو يضمّر عداوة بل حمل سلاح القلم والكلمة مدافعاً عما يعتقد ويؤمن به، مسوداً مئات الصفحات في الدلالة على أفكاره ومعتقداته، حيث يجد الدارس لها أسلوب الحوار طاغياً سارياً في حججه ودفاعه وتفسيراته ونظراته. ولم يستثن أحداً من حواراته الكثيرة بل حاور المؤمن والكافر والملحد والعاصي والصغير والشاب والكبير

والمرأة والرجل في لغة بليغة، وخطاب مشرق ينفذ إلى القلوب قبل العقول، ولا أدل على ذلك من تكرر ورود مصطلحات تتصل بالأسرة المفاهيمية للحوار، من مثل: المناظرة، الخطاب، الجواب، النقاش، الإقناع، الاقتناع، التوافقات، التعارف، البرهان، الحجة...

## ٢- الإنسانية سبيلا للترباط

يحتل مصطلح الإنسان في فكر الإمام النورسي مقاما أثيرا، ومنزلا عظيما، باعتباره مفهوما مركزيا؛ لا يحصل للدارس للفكر النورسي الفهم العميق والتمثل الكامل إلا باستحضاره، وإدراك امتداداته وعلائقه وروابطه. فالإنسان عند النورسي هو «الثمرة النهائية لشجرة الخلقة، ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وألطفها؛ لذا فإن الإنسان هو ثمرة العالم، وأجمع وأبدع مصنوعات القدرة الإلهية، وأكثرها عجزا وضعفا ولطفًا»<sup>(١)</sup>.

### وصدق الإمام علي حين قال:

وتحسب أنك جرم صغير      وفيك انطوى العالم الأكبر<sup>(٢)</sup>  
وأنت الكتاب المبين الذي      بأحرفه يظهر المضمّر

هذا الإنسان هو موضع تشريف وتكريم رباني حين أحسن خلقه، وأبدع صورته، وعدّل قوامه، وسخر له الكون خادما رفيقا به، مطيعا له، مُعدّا لاستقباله، وجعل الكائنات الأخرى من حيوانات ونباتات وجمادات على مقام التسخير له، والإيفاء بمصالحه وضرورياته. وما خلق الله السماوات والأرض والجبال والحياة بكليتها إلا لتكون فضاء لاختباره، وابتلائه، وتمحيصا لطائعه من عاصيه، يقول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ٢)، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود: ٧)، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧)، فهو كما قال النورسي «قائد الموجودات،

(١) الكلمات ٢٠٤/١.

(٢) ديوان الإمام علي بن أبي طالب: ٥٧. جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، المكتبة الشعبية. وفي هذا المعنى يقول الإمام النورسي: «لا يخطر على بال أحد ويقول: ما أهمية هذا الإنسان وما قيمته حتى تنتهي هذه الدنيا العظيمة، وتفتح دنيا أخرى لمحاسبتها على أعماله؟ لأن هذا الإنسان هو سيد الوجود رغم أنه صغير جدا؛ لما يملك من فطرة جامعة شاملة» الكلمات ٦٣/١-٦٤.

والداعي إلى سلطان ألوهية الله، والممثل للعبودية الكلية الشاملة ومظهرها؛ لذا فإن له أهمية عظيمة»<sup>(١)</sup>.

وقد جعل الله تعالى له الحياة الدنيا منفسحا ليعرف خالقه، ويدرك عظمته، وجلاله وجماله، ويحظى بمعيته وقربه، وميدانا للاستمداد من أنواره، وإدراك أسراره. يقول الإمام النورسي عنه: «هو الآية الحاملة لتجليات الاسم الأعظم في ذلك القرآن الكوني... وهو أكرم ضيف في قصر الكون، وهو أنشط موظف مأذون له بالتصرف في سكنة ذلك القصر»<sup>(٢)</sup>.

ويرتبط هذا المفهوم عند النورسي ارتباطا وثيقا بالتعايش المطلوب والتواصل اللازم، لما للإنسان من روابط تجمع بين أبنائه، وتلحم العلاقة بينهم بلحام التقارب والتعارف، من هذه الروابط: التكريم الإلهي، والانتساب الإيماني<sup>(٣)</sup>، و الوحدة الفطرية<sup>(٤)</sup>، يقول الله تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بُدَّيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠)، ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢)، وقد أشار الإمام النورسي في هذا السياق إلى أن الله: «وهب لهذا الإنسان استعداد فطريا ساميا؛ ما يمكنه من حمل الأمانة الكبرى التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، أي خلقه ليعرف صفات خالقه سبحانه الشاملة المحيطة، وشؤونه الكلية، وتجلياته المطلقة بموازنه الجزئية ومهاراته الضئيلة، والذي برأه بشكل اللطيف المخلوقات وأعجزها وأضعفها فسخر له جميعها من نبات وحيوان؛ حتى نصبه

(١) الكلمات ١/٦٣-٦٤.

(٢) الشعاعات ٤/٢٧٢.

(٣) من المصطلحات النورية التي تكررت في كتاباته. يقول في ذلك: «فما دمت قد ظفرت بنقطة استناد مثل هذه؛ بهوية الانتساب الإيماني، فيمكنك الاستناد والاطمئنان إذا إلى قوة عظيمة وقدرة مطلقة» للمعات لبديع الزمان سعيد النورسي: ٣٨٩. ترجمة إحسان قاسم الصالحى، دار سوزلر: القاهرة.

(٤) هي عند الإمام النورسي ثُمائل الإنسانية، يقول فريد الأنصاري معرفا مفهوم الإنسانية عند النورسي: «هي الفطرة التعبدية لدى الإنسان، ببعدها الكوني الشامل، واستعداداتها الفكرية لتذوق الإيمان». انظر: مفاتيح النور: ١٦٠.

مشرفا ومنظما ومتدخلا في أنماط تسيباحتها وعباداتها، والذي جعله نموذجا - بمقاييس مصغرة للإجراءات الإلهية في الكون، ودلالا لإعلان الربوبية المنزهة - فعلا وقولا - على الكائنات؛ حتى منحه منزلة أكرم من منزلة الملائكة، رافعا إياه إلى مرتبة الخلافة»<sup>(١)</sup>.

ومن هذه الروابط الجامعة اندراج البشر جميعهم ضمن أصل واحد، ورجوع أصولهم إلى أب واحد، وأم واحدة، يقول النبي ﷺ: (أيها الناس إن الرب واحد، والأب واحد...)»<sup>(٢)</sup>، وقد اعتنى الخطاب القرآني في الكثير من آياته بهذه الرابطة حين خاطب البشرية بقوله: ﴿يَبْنَىءَ آدَمَ﴾<sup>(٣)</sup>؛ أفلا يكون ذلك أدعى لتسيير العلاقات بينهم على قواعد الاحترام المتبادل، والإحسان استحضارا لهذا الأصل الجامع، وإن اختلفت التوجهات والمعتقدات، وتباينت المنطلقات، وتعددت الآراء والأطروحات.

ولعل من أهم المصطلحات الخادمة للتعايش والتواصل والتي أثلها الإمام النورسي ونحت معالمها والتي تشكل امتدادا للأخوة الإنسانية؛ مفهوم "الأخوة الوجودية"؛ بما هي رباط يربط الموجودات من جميع الكائنات الحية والجمادات برباط وثيق من شأنه أن يطبع العلاقة بطابع الاحترام والتقدير، يقول فريد الأنصاري في هذا السياق: «إن كتابا آخرين، ومفكرين إسلاميين عديدين قد تكلموا عن شيء من مثل هذا المعنى، متحدثين عن روابط الأخوة بين الموجودات من حيث هي جميعا تعبد الله الواحد وتسبح بحمده... بيد أن بديع الزمان... وجد رحمه الله بإحساسه الصافي أن هذه الأخوة موصولة بمفهوم الزمن الانتسابي، إذ يشعر العبد المنسب أنه لا يشارك الموجودات في أخوة العبادة لله وحسب، بل يتعدى ذلك إلى مشاركتها في أخوة الوجود»<sup>(٤)</sup>.

### ٣- الرحمة العامة باعنا على الشفقة والعطف الإنساني:

اتسعت رحمة الله للخلائق بأجمعهم، ووسعتهم برّهم وفاجرهم، عاصيهم وطائعهم،

(١) الكلمات ١/٩٤.

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ٤٠٧/٢١. تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر: دمشق،

١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٣) انظر الآيات التاليات: الأعراف: ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٥، ١٧٢، الإسراء: ٧٠، يس: ٦٠.

(٤) مفاتيح النور: ٣٤٨-٣٤٩.

صغيرهم وكبيرهم، يقول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٥٦)، ومن أنوار هذه الرحمة الإلهية قيس محمد ﷺ، ومن فيوضاتها اغترف فكان رحمة للناس، شفوفا عطوفا عليهم، ولينا بين أيديهم، رؤوفا بهم، يقول عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، يقول بديع الزمان عن هذه الرحمة: «الرحمة الواسعة التي تديم حياة جميع ذوي الأرواح المحتاجة إلى الرزق، وتعيشها بكمال الرأفة عيشة خارقة للغاية. والعناية الدائمة التي تظهر أنواع الزينة والمحاسن بما لا يعد ولا يحصى، في فترة قصيرة جداً في كل ربيع»<sup>(١)</sup>.

ودخول الناس جميعاً ضمن هذه الرحمة العامة هو اندراج في سلك العبودية الاضطرارية والمطلقة، يقول النبي ﷺ فيما رواه أنس بن مالك: (الخلق عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)<sup>(٢)</sup>. فكان من تجليات هذه الرحمة في سلوك المؤمن خدمة المخلوقات بغض النظر عن الاختلافات والتباينات.

وبالنظر لما غشي حياة بني الإنسان - في عصر النورسي والعصور اللاحقة - واستولى على أحاسيسهم، وداخل نفوسهم من قسوة وشدة في معاملة المخالفين، ورغبة في التنكيل والإذلال للمخالف، كما نرى في هذا العصر الهائج المائج قتلا وتدميراً وانتقاماً باسم الانتماء الديني، أو الهوية الوطنية، أو الانتساب العرقي؛ تُمسي الشفقة والرحمة أمرين لازمين، ومُخلقين واجبين. يقول الإمام النورسي: «في زمن عجيب كزماننا هذا لا بد من تطبيق خمسة أسس ثابتة: الاحترام المتبادل، الشفقة والرحمة، الابتعاد عن الحرام، الحفاظ على الأمن، نبذ الفوضى والغوغائية والدخول في الطاعة»<sup>(٣)</sup>.

#### ٤- التعاون سبيلاً للتقارب

لما كان الاختلاف البشري قدراً مقدوراً، ومسألة لازمة للوجود الإنساني، وسنة إلهية ماضية حتى يرث الله الأرض ومن عليها؛ كان لزاماً بناء العلاقات الإنسانية على أسس التعاون والتبادل والتساند المفضي إلى التقارب والتلاقي والوثام، يقول عز من قائل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ

(١) الكلمات: ١٢٤.

(٢) مسند أبي يعلى ٦/٦٥. تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث: دمشق، ط ١، ١٤٠٤هـ/ 1984.

(٣) الشعاعات: ٤٠٦.

أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْلِيفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿١١٩﴾ (هود: ١١٨-١١٩)، ويقول أيضا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ (المائدة: ٤٨).

يقول الإمام النورسي مؤكدا ضرورة التعاون وفرضيته: «من القواعد الثابتة للنبوة في الحياة الاجتماعية أن التعاون دستور مهيم على الكون، ابتداء من الشمس والقمر إلى النباتات والحيوانات، فترى النباتات تمتد الحيوانات والحيوانات تمتد الإنسان، بل ذرات الطعام تمتد خلايا الجسم وتعاونها. فأين هذا الدستور القويم دستور التعاون، وقانون الكرم، وناموس الإكرام من دستور الصراع الذي تقول به الفلسفة من أنه الحاكم على الحياة الاجتماعية؛ علما أن الصراع ناشئ فقط لدى بعض الظلمة والوحوش الكاسرة من جراء سوء استعمال فطرتهم...»<sup>(١)</sup>.

فلا بديل عن التعاون سوى الصراعات والعداوات وإنتاج الكراهية، واستفراء البعض بمصائر الآخرين، وسلوك سبيل الدمار والحرب المؤذن بالسقوط والانهيار. ولا حجة لمن يبيى عداوته على اختلاف الألسن والأجناس والشعوب والألوان والعقائد... ويتخذها مطية للتفرقة والانقسام، لأن المقصد من وجود هذه الاختلافات تحقيق التعاون المفضي إلى التكامل، يقول الإمام النورسي بعد إيراده آية سماها "دستور التعارف والتعاون": ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣): «خلقناكم طوائف وقبائل وأمما وشعوبا كي يعرف بعضكم بعضا، وتعرفوا على علاقاتكم الاجتماعية، لتعارفوا فيما بينكم، ولم نجعلكم قبائل وطوائف لتتناكروا وتتخاصموا»<sup>(١)</sup>.

المبحث الثاني: أثر هذه القواعد الجامعة في تنمية العمل الإيجابي، وحل

### الأزمات، وتجاوز المشكلات

#### ١- تحقيق الأمن الروحي والاجتماعي والسياسي

لا شك أن تطبيق هذه القواعد الناظمة للعلاقات الإنسانية في دنيا الناس من شأنه أن يعود بفوائد جمة وثمرات كثيرة على الفرد والمجتمع والأمة والإنسانية جمعاء، بما يحقق الأمن

(١) الكلمات: الكلمة ٣٠.

(١) المكتوبات: لبدیع الزمان سعید النورسی: ٤١٣. ترجمة إحسان قاسم الصالحی، دار سوزلر: القاهرة،

ط ٣، ٢٠٠١.

الروحي، والأمان الاجتماعي، ويزيل عوامل الخوف والرهبنة من مصادرة حقوق المختلف، وحرية الدينية والفكرية. يقول النورسي مبرزا أثر بعض هذه القواعد في ترسيخ منظومة الأمن والأمان: «إن رسائل النور في نظرتها إلى الحياة الاجتماعية قد ظلت تُثبَّت وتُحَكَّم هذه الأسس الخمسة وتحترمها احتراما جادا محافظة بذلك على الحجر الأساس لأمن البلاد... استطاعت في مدى عشرين عاما أن تجعل أكثر من مائة ألف رجل أعضاء نافعين للبلاد والعباد دون أن يتأذى أو يتضرر بهم أحد من الناس»<sup>(١)</sup>.

وقد ساهمت التربية النورسية على هذه القواعد التي تضبط العلاقة مع الآخر في صناعة جيل نوراني رسالي يمضي على مهيع العمل الإيجابي والبناء، ويؤثر في واقعه بالخدمة والرحمة والعطاء، وهذا ما جعل بعضا ممن خبروا معدن طلابه وتلامذته يشهدون بقيمة جهودهم، وفعالية أفكارهم، وإيجابية سلوكهم، فاعترفوا «أن طلاب رسائل النور رجال أمن معنويون، لأنهم يحافظون على الأمن وعلى النظام»<sup>(٢)</sup>.

## ٢- الشفقة على المخالفين وخدمة الخلائق أجمعين

من الثمار اليانعات لهذه القواعد السابقة حصول الشفقة في القلوب، والعطف في النفوس، وانتصاب المستلهمين لها للتخلق بخلقى البذل والخدمة في معاملة الناس ومخالطتهم بما يعود بالنفع والرحمة والتقدم في سلم الأخلاق، ومدارج التميز العقلي والقلبي والمعاشي، يقول الإمام النورسي مبرزا تأثير الشفقة كقاعدة مهمة في تدبير العلاقة مع الآخر: «لما كانت الشفقة دستور حياتي منذ ثلاثين سنة، وأساس مسلكي ومسلك رسائل النور، فإنني لا أتجنب التعرض للمجرمين الذي ظلموني وحدهم بل لا أستطيع حتى مقابلتهم بالدعاء عليهم، وذلك لكي لا أتسبب في إلحاق الضرر بأي شخص بريء. بل إن الشفقة هي التي منعتني من أن أتعرض -أو حتى أن أدعو- على بعض الفساق من الظالمين اللادينيين الذين اندفعوا بحقد شديد في ظلمي، ذلك لكي لا أتسبب في ضرر مادي يلحق بالشيوخ والعجائز المساكين من أمثال والد ذلك الظالم أو والدته، أو في الإضرار بأنفس بريئة مثل أولاده»<sup>(٣)</sup>.

(١) الشعاعات: ٤٠٧.

(٢) الشعاعات: ٤٣٩-٤٤٠.

(٣) الشعاعات: ٤٣٩.

ولأهمية الخدمة وضرورتها في الفكر النورسي كانت آخر ما نبه إليه في درسه الأخير، يقول في ذلك: «إن وظيفتنا هي العمل الإيجابي البناء، وليس السعي للعمل السلبي الهدام. والقيام بالخدمة الإيمانية ضمن نطاق الرضى الإلهي دون التدخل بما هو موكول أمره إلى الله. إننا مكلفون بالتجمل بالصبر، والتقلد بالشكر تجاه كل ضيق ومشقة تواجهنا، وذلك بالقيام بالخدمة الإيمانية البناءة التي تنمّر الحفاظ على الأمن والاستقرار الداخلي»<sup>(١)</sup>.

### خاتمة:

هذا غيضٌ من فيضِ أنوارِ جرت في ميادين الكلمة القرآنية والحقيقة المحمدية، وانبثقت من مشكاةٍ فيها مصباحٌ أضاء قلب الإمام النورسي؛ فجاد بأسرار نورانية، وخواطر ربانية، ونظرات إيمانية غيرت مسار أجيال اتسعت مواطن حضورها، وأماكن وجودها شرقا، وغربا، شمالا، وجنوبا، تاركا أثرا لا يمحي، وبصمة لن تزول، وذكرا لن يخبو، وخيرا لن ينقطع؛ لأنه متصل مدده واستمداده بنور القرآن الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢).

وقد شاد الإمام النورسي قواعد ناظمة للعلاقات بين بني الإنسان بما يحفظ وجودهم، ويصون حقوقهم، ويمنع تنازعهم واحترامهم، من حوار يشكل أفقا للتعايش، وإنسانية تُشعر بالترابط، ورحمة عامة تبعث على الشفقة والعطف الإنساني، وتعاون يُؤسس للتقارب؛ بما يشمر بتحقيق الأمن الروحي والاجتماعي والسياسي، وحفز خصال الشفقة والرحمة بالمخالفين، وخدمة الخلائق أجمعين.

---

(١) سيرة ذاتية: ٤٦٩.

## لائحة المصادر والمراجع:

- تاريخ دمشق لابن عساكر. تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر: دمشق، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- حضارة العرب لغوستاف لوبون. ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة: مصر، ٢٠١٣.
- ديوان الإمام علي بن أبي طالب. جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، المكتبة الشعبية.
- سيرة ذاتية لبديع الزمان سعيد النورسي. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر: القاهرة.
- الشعاعات لبديع الزمان سعيد النورسي ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر: القاهرة، ط٢، ١٩٩٣.
- شمس العرب تسطع على الغرب لزغريد هونكه. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجليل/دار الآفاق الجديدة: بيروت، ط٨، ١٣٤١هـ/١٩٩٣م.
- الكلمات لبديع الزمان سعيد النورسي.
- اللمعات لبديع الزمان سعيد النورسي. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر: القاهرة.
- مسند أبي يعلى. تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث: دمشق، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤.
- مفاتيح النور لفريد الأنصاري. معهد الدراسات المصطلحية: فاس/مركز النور للدراسات والبحوث: تركيا/كلية الآداب والعلوم الإنسانية: طهر المهراس فاس، ٢٠٠٣.
- المكتوبات: لبديع الزمان سعيد النورسي. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، دار سوزلر: القاهرة، ط٣، ٢٠٠١.
- الملاحق لبديع الزمان سعيد النورسي. ترجمة إحسان قاسم الصالحي، شركة سوزلر: القاهرة، ط٣، ١٩٩٩.